



فاطمة بنت ناصر

الإنسان الأوروبي المعاصر عند تشالز تايلور منعزل ومتقوقع ونرجسي

نشرت مجلة التفاهم مقالا كتبه أستاذ الفلسفة المغربي محمد المحفيظ يستعرض فيه فكر الفيلسوف الكندي تشالز تايلور وإسهامه الفكري المتعلق بفهم هوية الإنسان المعاصر. وتتمثل أهمية هذا المقال من وجهة نظري في أنه يعرفنا باسم مهم ولكنه لم ينل نصيبه من التعريف في العالم العربي الذي ركز على اجترار نفس الأسماء المعروفة والتي رحلت عن دنيانا مثل: (أدورنو، وحنة أرندت، وهايدغر وغيرهم). إن استعراض نتاج الفلاسفة المعاصرين وعرض آرائهم مهم جداً لتجاوز ما عهدناه من الاحتفاء بالمفكرين بعد وفاتهم.

المعاصر، وخرج بتفسيرات مثيرة نستعرضها في القادم. تشريح تايلور لعلل الحداثة وأوجاعها خرج تايلور بعد مقارناته وتحليله إلى ثلاثة ملامح لخص فيها ما تعانيه الحداثة وهوية الإنسان الأوروبي اليوم. أولاً: الفردانية النرجسية: تحولت الحرية من أمر يحفظ كرامة الإنسان ويساعد على اندماجه مع مجتمعه إلى مفهوم نرجسي منغلِق. فتحولت الفردانية الخيرة التي تعكس خصوصية اختلاف كل فرد فينا إلى فردانية شريرة وعدوانية أحياناً. لهذا نجد على المستوى السياسي وجود ليبراليات متطرفة نتجت منذ الستينيات التي ازدهر فيها خطاب (التفتح الذاتي والازدهار الشخصي)؛ فقد تم بتر الأصالة من علاقتها بأصل الشعوب والانتماء إلى جماعة لتكون أصالة تعكس تفرد الفرد وكأنه كائن منفصل لم تؤثر فيه جذوره. وهذا أمر غير واقعي؛ فالملمح الرئيسي الذي شكل كافة البشر يكمن في (الحوار) مع الآخرين وبتره عن السياق ينتج أفراداً أنانيين متطرفين في نزعاتهم يسعون لأهداف ذاتية.

ثانياً: هيمنة العقل الآداتي: ونرى ذلك في النزعة اللاهثة لزيادة الإنتاجية والرفاهية الفردية؛ فنجد ضرراً يقع على الفقراء بدعوى تعزيز الاقتصاد، كما نجد الطبيب يسعى لتخصيص جائر وقد أهمل علاقته الإنسانية، وأصبحت المهنة مجرد وسيلة للربح لا أكثر.

ثالثاً: السجن في قصص الاستبداد الناعم: الإنسان الأوروبي يعيش اليوم حالة انعزال لتحقيق غاياته الفردية وهذا أدى إلى اختياره السيء لمن يمثله، فنجد أن الاختيارات الحديثة تأتي لصالح مرشحين يسعون لزيادة هذه الهوية، وهدفهم الأوحد تحقيق المصالح المادية. ولكي تتحرر من سلطة هذا الاختيار الفرداني النرجسي علينا السعي لتحقيق (ديموقراطية حيوية) غير منعزلة وغير نرجسية متفاعلة مع محيطها وحافطة لحقوق الجميع ساعية إلى لم شتات المجتمع وإخراج الأفراد من تقوقعهم الذاتي.

ختاماً، أتمنى أن يكون هناك تحليل مشابه لاختيارات الفرد في الوطن العربي اليوم، الذي يبدو قد تأثر بموجات الفردانية النرجسية فبات منغلِقاً على ذاته، وقابلاً للظلم الذي يقع على غيره في سبيل تحقيق رفايته الشخصية.

وعلى الرغم من أن الأديان اختفت بشكل كبير من المشهد العام إلا أن أثرها لا يمكن إنكاره في تشكيل مفاهيم الذاتية الأولى كأعمال (القديس أوغسطين). كما أن الدين في أوروبا أبرز قيمة الكرامة المتساوية للناس التي تسعى كل المجتمعات الحديثة إلى صونها وترسيخها، بالإضافة إلى التأكيد على أهمية الحياة العادية للأفراد المتمثلة في تامين الحياة العائلية باعتبارها حياة فاضلة وخيرة.

أما العقل المتجرد فمرتبط بالفيلسوف ديكارت الذي اعتبر الإنسان كائناً عقلانياً متجرداً من كل تشويش قد يؤثر على تفكيره كالعواطف والتقاليد والعادات وما شابهها. أسهم هذا التفكير في أمور أهمها: التأكيد على الحرية وإعلاء قيمة الفردانية والعمل على ترسيخ الكرامة الإنسانية واستغلال الموارد الطبيعية بهدف رفاهية الإنسان. كما أنه أكد على قيمة الحياة العادية (تكوين الأسرة والعمل).

في الجانب الآخر نجد أن العامل الثالث المتمثل في التعبير الرومانطيسي أوجد مفهوماً آخر يبدأ من كون الطبيعة هي المصدر الحقيقي ومنها سجد الحقيقة. وقد ساهمت في تأكيد الفردانية وتشجيع العمل الإبداعي والتأكيد على قيمة الأصالة.

ولهذا؛ نجد أن أعمال تايلور تشدد على الأخذ بهذه العوامل الثلاثة، والتأكيد على أن الأخذ بواحد منها فقط لتحليل هوية الفرد الحديث هو اختزال سطحي لمسألة عميقة.

وقبل أن نبدأ في ذكر أهم ما توصلت إليه نتائج بحوث تايلور، نستعرض منطلقاته:

- الجينالوجية والأنطولوجيا: هذا الجمع بين الجينالوجية والتعمق في الدراسة الوجودية (الأنطولوجيا) لم تجعل تايلور فقط يقوم بتوصيف الحدس الأخلاقي والروحي ولكن مكنته من فهم أصول هذا الحدس ومحضراته وعلله التي أوجدته. فهي ليست بأمر طارئة ولكنها امتداد لتاريخ بشري طويل لا يمكن عزل تأثيره عن تكوين الإنسان المعاصر.

- التقويم القوي (Strong Evaluation): ما يحدد اختياراتنا الأخلاقية ليست آراؤنا الشخصية حولها، فكل ما نعتقد أنه خير أو شر - أفضل وأساء - أسوأ وأرذل، كلها محددة مسبقاً من شيء مثالي نطمح أن نصل إليه. لهذا؛ شرع تايلور في تتبع أصول تفضيلات الإنسان الغربي

فهؤلاء يحاكمون الواقع الذي نحياه مستندين على ثقافة غزيرة تؤهلهم لمحاكمة الحاضر ومقارنته ومقارنته بالعناصر التي شكّلت الماضي كذلك. ولابد من التنويه أن القادم يستعرض الإنسان الغربي وحضارته والتي بلا شك أثرت فينا وتأثرنا بها ولكن لا يمكن إخضاع ما قاله تايلور بشكل حر في على الحاضر الإسلامي والعربي على وجه الخصوص بسبب اختلاف التجربة واختلاف الأصول والمنطلقات بين العالمين.

يؤمن تايلور بأنه لابد من تتبع ما شكل هوية الإنسان المعاصر لتفهم إشكالات الحاضر الذي يعيشه؛ وذلك لأن فهم ذاتنا بشكل جيد هو أفضل سبيل للحكم على إشكالات الحاضر ومهدداته. ويرسم تايلور سمات للإنسان الغربي المعاصر تتمثل في كونه:

- يتسم بأنه كائن متجرد وعقلاني: يحكم على الأمور كموضوعات مجردة يحللها من خلال شخصيته المفكرة.
- هو فرد حر: يقدس حرّيته ويربط وجوده وإنسانيته بها؛ لذلك يتوجس من كل أشكال الوصاية الخارجية أو حتى الداخلية الموروثة.
- يقدر الحياة العادية: على عكس التوجهات التي تقلل من شأنها وتعلي من شأن الحياة التأميلية الفكرية أو حياة الحرب والفرسان أو حياة الزهاد والمتسكّن. الإنسان الغربي المعاصر يعلي من قيمة العمل وتكوين الأسرة وتوفير الصناعة وتوفر المنتجات الاستهلاكية. وهو بذلك يحاول تجنب نفسه من التعرض للألام وظهر ما يمكن تسميته (أخلاقيات الرعاية-ethics of Benevolence). التي تولي اهتماماً كبيراً بتوفير الرعاية الاجتماعية ومحاولة تجنب الناس كوارث من العهود السابقة كالمجاعات والأوبئة، فيسعى الناس بشكل مستمر لتجنب أنفسهم لمكافحتها والتوعية بشأنها).

منابع الأخلاق

لنضمهم الهوية الحديثة علينا أن نفهم المنابع الأخلاقية التي يعتقد تايلور أنها ساهمت في تشكيل هوية الإنسان الأوروبي الحديث وهي حسب الترتيب:

- ١- المصدر التأليهي المتمثل في الأديان
- ٢- المذهب الطبيعي للعقل المتجرد
- ٣- المكون التعبيري والرومانطيسي